مدخل عام

عنيت بقضية التجديد في الإسلام منذ بداية الثمانينيات في القرن الماضى ، واستمرت هذه العناية : قراءة وبحثا وتسجيلا حتى منتصف عام ٢٠٠٦ ، وقد أثمرت هذه العناية عددا من الفصول عن معنى التجديد في الإسلام ورجاله ، بدأت نشرها بصحيفة الأهرام في التاسع من مايو عام ١٩٨٧ متتبعا هذه القضية ، وما يتصل بها من تداعيات وملابسات ، كما تتبعت رموز هذا التجديد ورجاله ، وهم في حقيقة الأمر من أولئك الذين اتفق المؤرخون : قديما وحديثا على تسميتهم : مجددين في الإسلام .

وقد تجدد هذا الاهتمام ، وتلك العناية بقضية التجديد في الإسلام بصورة مكثفة ، بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١ في الولايات المتحدة الأمريكية ، وما نجم عنها من انفجار برجي التجارة العالميين بنيويورك، وأجزاء من مبنى البنتاجون بواشنطن، حيث نجحت الصهيونية العالمية – كعادتها في الدس وخلط الأوراق – في أن تصور للعالم أن هذه الأحداث التي وقعت بالولايات المتحدة الأمريكية ، قد تمت بأيد إسلامية . وبناء على ذلك اتهم الإسلام – ظلما وعدوانا – بتهمة الإرهاب ، ونتيجة لذلك أيضا : نشط البعض من الكتاب الأمريكيين ، وبعض المسئولين في الإدارة الأمريكية إلى القول بأنه ينبغي إعادة النظر في بعض برامج التعليم الإسلامي ، أو باختصار : التجديد في التعليم الإسلامي ، أو بصورة أعم وأشمل : إعادة النظر إلى قضية التجديد في الفكر الإسلامي ، وتحويلها من مجرد عمل فكري يفيد الإسلام والمسلمين إلى أداة في أيدي أعداء هذا الدين .

وبجهل فاضح ، اعتبر هؤلاء المدعون من الأمريكيين أن هذه أول محاولة لتجديد الفكر الإسلامى ، وفاتهم أن التجديد في الفكر الإسلامى ، تم على أيدي أبنائه كما سنرى منذ خمسة عشر قرنا ، وليس هناك حاجة إلى من يجدد . أقول : التجديد في الفكر الإسلامى تم على أيدي أبناء الإسلام منذ القرن الأول الهجري ، واستمر إلى اليوم لسبب بسيط هو : أن هذا الدين يعمل دائما على أن يكون أتباعه مواكبين لمسيرة الحياة التي هي دائما في تجدد مستمر .

والحق .. أن هذه القضية قد أثارت اهتمام بعض المفكرين الذين استفزتهم هذه الأكاذيب ، سواء في اتهام الإسلام بالإرهاب بعد أحداث سبتمبر عام ٢٠٠١ بالولايات المتحدة الأمريكية ، أو بادعاء القيام بإعادة النظر في بعض برامج التعليم الإسلامي ، أو حتى محاولة الدعوة إلى تجديد الفكر الإسلامي .

ومن هؤلاء المفكرين : الأستاذ الدكتور «عبد المعطي بيومي» الذي كتب مقالا مهما بمجلة (المصور) عنوانه : (الدعوة إلى التجديد قديمة ، ولا صلة لأمريكا بها) مشيرا إلى بعض المحاذير التي منها الشائعات التي يمليها سوء الظن المبرر بأمريكا قد تلحق دعاة التجديد ليشملهم سوء الظن ، غير المبرر هنا – فكلما دعا داع إلى التجديد كان عرضة للظنون الواهمة ، والشائعات الباطلة ، والرمي بالعمالة لأمريكا والدوران في محيطها . وهذا لا يخيف دعاة التجديد فحسب ، بل يوقف هذا التيار الوطني الإسلامي المخلص ، ويحرم الأمة من مواصلة مسيرتها التقدمية ، بل يصل خطره إلى تعويق دعوة الإسلام ، وتعطيل صلاحيته لكل زمان ومكان .

ولا يكتفي الدكتور «بيومي» بطرح هذه المحاذير ، بل نراه يقرر قائلا : « وإذا تعطلت طاقات التجديد في الأمة وتوقفت مسيرتها التقدمية ، وعوقت دعوة الإسلام؛ فإن الأمة- بالقطع- تفقد مناعتها حينئذ، وتفقد القدرة على امتلاك أدوات المواجهة في الحوار أو في الصراع ، وتجديد مقاومتها لمواجهة محاولات «العولمة» أو

«الكوكبة» التي تهدف إلى تنميط العالم أو قولبته – خاصة الأمة الإسلامية – بنمط أو قالب واحد يستأصل كل الفوارق، ويقضي على كل الخصائص الثقافية والعقائدية» .

ولهذا .. ولغيره من أسباب .. كان على المرء أن يرجع إلى كل ما يمكن الوصول إليه من مراجع في هذا المجال ، حتى يمكن تقديم صورة- ولو يسيرة- عن التجديد ورجاله ، تدحض دعاوى البعض الذين يدعون أنهم : يأتون بما لم يفكر فيه من قبل رجال الإسلام . ومتى ؟ منذ أكثر من خمسة عشر قرنا . وكيف ؟ بمناهج إسلامية دقيقة وموضوعية. ولماذا؟ لحاجة المسلمين إلى هذا التجديد؛ لظهور بعض المشكلات التي لم تكن موجودة في العصور الإسلامية الأولى ؛ نتيجة لاتساع رقعة الدولة .

ولهذا الأمر.. أعترف بأنني كنت قارئا أكثر مني كاتبا، نعم، قارئا وناقلا لبعض النصوص كما هي أكثر من محلل لها بكل ما تركه السابقون : قدماء كانوا أو محدثين حتى تستوي لدي معرفة لا بأس بها. يمكن أن أنقلها إلى القارئ في هذه الصفحات.

والحق .. أنني وجدت الإسلام كدين عامر برجاله الذين وهبوا حياتهم وأفكارهم لخدمة هذا الدين الحنيف ، كما وجدت تطورا في تفكير المفكرين المسلمين في العصور المتتالية . قد يعز على نظرائهم في زماننا ، بل ووجدت أنه في القرن الواحد منذ بداية القرون الإسلامية أكثر من مجدد . منهم: العلماء والفقهاء ، وكذلك القائمون على أمور المسلمين من خلفاء وولاة وحكام ؛ مما يدل دلالة واضحة على أن الإسلام يهتم بأمور الدنيا اهتمامه بأمور الآخرة .

وقد لاقت بعض هذه الحلقات عند نشرها بالأهرام منذ عام ١٩٨٧ بعضا من رضا القارئ واهتمامه . وهو ما عبرت عنه بعض الرسائل والاتصالات والتعليقات، تلك التى كان يخصنى بها القارئ الذي يهمه – قبل كل شيء – أمر دينه ، فيفكر فيما يتعلق بأمر هذا الدين ، وتلك إيجابية تهم أي كاتب أن يفكر معه القارئ ، ويهتم بما يكتب له .

ولعل هذا التفكير ، ومن قبله الاهتمام ، يرجع - أولا وأخيرا - للذين أخذوا على عاتقهم مهمة التجديد ، وبذلوا في سبيل ذلك الكثير من التضحيات الباسلة ، وواجهوا أيضا الكثير من المخاطر التي تولى كبرها البعض من أهل الجمود . يأتي في المقام الثاني بعد هؤلاء المجددين : فريق الكاتبين الذين أخذوا على عاتقهم مهمة تسجيل جوانب هذه القضية لمن بعدهم جيلا بعد جيل ، حتى تصل إلينا في زماننا ، ونقرأها ونثيرها ثم ننشرها على الناس .

إلا أن ما ينشر ملخصا أو مركزا في مقال بصحيفة أو دراسة في مجلة ، ربما يعوزه الكثير من التفصيل والتأصيل عند تحويله إلى صفحات يتضمنها فصل في كتاب ، ولهذا .. كان على المرء أن يعود إلى المراجع القديمة ، مضافا إليها ما استجد من مراجع جديدة ؛ حتى يمكن تقديم قضية التجديد في الفكر الإسلامي بصورة أكثر شمولا ، وأدق توثيقا ، وهو ما تطلب جهدا جديدا لا يقل عن الجهد المبذول في كتاب يتم تأليفه دون الرجوع إلى ما يكون قد كتب في مقال أو دراسة . ذلك لأن فصول الكتاب المعتمدة على مقال أو دراسة نشرت من قبل ، لابد أن ينظر إليها من جديد ، في مادتها وتناولها وبعض مراجعها .

ولهذا .. ولغيره من أسباب تتعلق بهذه الموسوعة وتقديمها للقارئ ، كان على المرء أن يمهد لهذه القضية بالسؤال عن التجديد ، وماذا يعني في هذا المدخل ، الذي أتمنى أن يوضح - كإشارة - الحديث عن هؤلاء المجددين كل على حدة ، غير غافل عن أحوال العالم الإسلامي في كل مائة عام من أعوامه الهجرية ، فنقدم هذه الأحوال المتعلقة بالبيئة التي كان يعيش فيها المجدد ، وما يتصل بها من مواقف ، في محاولة لتقديم صورة موجزة للعصر الذي كان يعيش فيه هذا المجدد من عدة نواح ، منها: السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية . والسؤال عن جوانب تجديد المجدد ، وهو ما يهمنا في الصفحات التالية لهذه الموسوعة ، ومناقشة إلى أي مدى واكبت هذه

الجوانب الحياة الإسلامية في سعيها المتجدد ؟ وإلى أي مدى كانت هذه المواكبة ذات فائدة للمجتمع الإسلامي ؟ وغير ذلك من تساؤلات ، راجيا من الله عز وجل أن يوفقني في الإجابة عليها ، وعلى غيرها من تساؤلات تنشأ مع الاستمرار في السطور التالية ، كإشارات سريعة إلى هذه الباقة من مجددي الأمة الإسلامية الموجودة على مدى الخمسة عشر قرنا ، تلك التي امتد منها الإسلام في الزمان، وانتشر في المكان .

* * *

إن الحديث عن معنى التجديد ورجاله ، هو في حقيقة الأمر حديث عن الإسلام في أرقى صوره الفكرية ، وإن الاهتمام بتاريخ حركة التجديد في الإسلام من شأنه الاهتمام بتطور الفكر الديني .

لقد ظهر جانب من هذا الحديث ظهورا واضحا في المائتي عام الأخيرة . في كتابات نذكر منها كتابات: الأفغاني والكواكبي والإمام محمد عبده ومصطفى المراغي.

ثم في كتابات الرواد المعاصرين، ومنهم: الدكتور هيكل وأحمد أمين وطه حسين والعقاد وأمين الخولي والحكيم ومحب الدين الخطيب ، بل وأخذت اهتماما بارزا عند الأستاذ عبد المتعال الصعيدي ، فأفرد لها كتابا عنوانه : « المجددون في الإسلام » . هذا إلى جانب ترجمة كتاب : « الإسلام والتجديد » الذي كتبه في الثلاثينيات الأستاذ عباس محمود وهو - بالطبع - غير كاتبنا عباس محمود العقاد .

إلا أن هذا الاهتمام ، سبقه اهتمام آخر مبكر ، ربما يمتد إلى القرن الثالث الهجري، كما يقرر الأستاذ «أمين الخولي» في كتابه عن (التجديد في الإسلام) .

ولا عجب في ذلك الاهتمام : حديثا وقديما بالكتابة عن حركة التجديد الإسلامى ، ذلك لأنها أحيت قضايا عديدة ، ونفضت عنها غبار القرون . ومنها أن الإسلام منذ قرونه الأولى حتى يومنا هذا ، ليس عقيدة دينية فحسب ، بل نظاما سياسيا واقتصاديا واجتماعيا . وليس الإسلام عبادة جوفاء ، وليست تعاليمه بمعزل

عن التطور والتغير في الحياة ، بل إن الإسلام دين متطور ، يؤثر في الأحداث فيؤيد الحركات الوطنية الجليلة ، حتى ترتكز على دعائم تمتد جذورها في قلب كل فرد في المجتمع الإسلامى ، مما أدى إلى إقامة علاقة خصبة بين العناصر الدنيوية والأخرى الدينية طغت على جميع الجوانب . حتى إن تاريخ العالم الإسلامى في زمن ما بعد الحرب العالمية الأولى ، ليس سوى تاريخ مسطور ، بين سجلاته أخبار تبادل الأيديولوجيتين : الدينية والدنيوية وتقاربهما .

إذا .. التجديد في الإسلام لازم لزوم الحياة نفسها ، مواكب لظهور الإسلام على مسرحها . فالدين الإسلامي قد أتى بالقواعد العامة التي تصلح لكل زمان ومكان. والمجدد يفكر في تنظيم الفروع التى لا تمس جوهر هذه القواعد . عليه مسئولية التفكير على اعتبار أن التفكير أصل من الأصول المقررة في الإسلام ، كدين يشمل صلاح الدنيا والآخرة ، فلا يقتصر الأمر فيه على ما يصلح الآخرة وحدها ، بل يدخل فيها ما يصلح الدنيا ؛ حتى يمكنه النهوض بالأمة التي ظهر فيها أولا ، وعلاقتها ببقية الأمم بعد ذلك . وهو من هذه الناحية يتسع للتجديد في كل زمان ومكان .. تجديدا يقوم به رجاله بنص حديث النبي ﷺ : « **إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة عام من يجدد لها دينها** »[1] . وقد قامت حول تفسير هذا الحديث خلافات كما يذكر الأستاذ الصعيدي والأستاذ الخولي وغيرهما من المؤرخين والمفكرين – منها : أن المراد من الأمة فيه : أمة الإسلام ، ويجوز أمة الدعوة حيث يراد من الإسلام النهوض الديني والدنيوي للأمم التي تعاصره .

وقد اختلف المفسرون أيضا في المراد من رأس المائة هذه ، فهناك من رأى : آخر هذه المائة على اعتبار : أن المراد من البعث من انقضت عليه المائة عام وهو حي عالم ، وهناك من رأى أن رأس المائة في أولها على اعتبار : أن البعث هو الإرسال ، أي : إرسال لنفع البشر . وهناك أخيرا من رأى أن إرسال المجدد سواء في أول المائة أو في

(1) أبو داود / باب الملاحم / 1 .

وسطها أو في آخرها ، وأن قيد الرأس في الحديث الشريف اتفاقي ، ولأنه قـد يكـون في وسط المائة من هو أفضل ممن هو على رأسها .

كذلك اختلفوا في (من) يبعث في المائة عام ، وهل يكـون واحـدا ؟ أم يكـون أكثر؟ فقيل : إنه لا يكون إلا واحدا ؛ لأنه جاء في بعض روايات الحـديث التـصريح بأن الله يبعث على رأس كل مائة عام رجلا .. أو قيل أنه قد يكون أكثر مـن واحـد ؛ لأن الرواية المشهورة للحديث (**إن الله يبعث من**) ولفظ مـن يطلـق عـلى : الواحـد وعلى الجمع .

من ناحية أخرى ، يـذكر الأسـتاذ أمـين الخـولي : « أن القـدماء يعنـون بـذلك التجديد : إحياء السنة ، وإماتة البدعة وإحياء ما اندرس » . وبتتبـع تفـصيل هـؤلاء القدماء لأحوال التجديد ، وهل هي منازع واتجاهات عملية اجتماعية ، أم هي نظرية تبليغية ؟ فيراهم ينزعون حينا منزعا عمليا ، وحينا آخـر منزعـا نظريـا . ومـع هـذا وذاك، يلحظ إيثارهم للمنزع العمـلي في التجديـد الـذي تؤيـده أشـياء منهـا : أنهـم يعدون الخلفاء وبعض الملوك والرؤساء مجددين ، مجـال تجديـدهم هـو في: إصـلاح الأمة بواضح عبارة القدماء الأصل في حفظ الدين قـانون الـسياسة ، وبـث العـدل والتناصف الذي به تحقن الدماء ، ويتمكن من إقامة قـوانين الـشرع ، ولـذلك هـب القدماء يعدون في كل مائة عام حكاما مع العلماء . فعلى رأس المائة الأولى إلى جانـب الخلفاء الراشدين الأربعة : عمر بن عبـد العزيـز، وقـالوا عنـه : يكفـى هـذه الأمـة وجوده، خاصة أنه فعل في الإسلام ما ليس بخاف ، كذلك الإمام الحسين وشـقيقته السيدة زينب (رضى الله عنهما) وعدوا في المائـة الثانيـة : الخليفـة المـأمون ، والأئمـة الأربعة ، إلى جانب الإمام الليث بن سعد . وفي الثالثة : المقتدر بالله مع ابـن سـريج وابن حنبل . وفي الرابعـة : القـادر بـالله مـع أبي الحـسن الأشـعري والفـارابي . وفي الخامسة : المستظهر بالله مع الغزالي وابن سينا وابـن حـزم وهكـذا ... كـذلك يؤيـد الاتجاه العملي في التجديد : اعتبار القدماء منصب تجديد الدين منصبا اجتماعيا يـشبه

منصب الخلافة ، بل إن التجديد بلغ من الأهمية ، إلى حد أن رفعوه إلى مرتبة النبوة ، فنقرأ لهم عبارة : «لو كان بعد النبي ﷺ نبي آخر لكان الغزالي» ، وهو أحد المجددين . ويزيد الاتجاه العملي في التجديد حيث يتعدد المجددون في القرن الواحد كل في ميدان ينفع بغير ما ينفع الآخر .

وبهذا الاتجاه العملي، يضع أمامنا الأستاذ «أمين الخولي» معنى للتجديد خلاصته: « أنه حركة دائمة ومتصلة ، ما اتصلت الحياة ، وما قام فيها من يحمي الحياة من الانحراف ، ويجهر بالحق ويصون المجتمع من الانتكاس وشيوع المفاسد فيه » .

وإذا كان هذا هو معنى التجديد ، فمن هو إذا المجدد ؟ . في رأي الأستاذ «عبد المتعال الصعيدي» : « أن المجدد هو من يجب أن يتعالى على التعصب الممقوت بين الفرق الإسلامية ، فلا يصح أن يكون لمذهبه في الدين أثر في غايته في التجديد . ولا فيما يرمي إليه من النهوض بالمسلمين ، بل يجب أن ينظر في دعوته إلى المسلمين جميعا » .

وطبيعي .. أن يواجه التجديد كحركة فكرية ديناميكية بعض التحديات ، تلك التي أشار إليها بعض المؤرخين في كتاباتهم عنه وعن تاريخه ، مثل : نشأته ورجاله ، خاصة ما نلمسه فيما يواجهه من هذه التحديات في العقود الثلاثة من القرن الحالي أي : القرن الخامس عشر الهجري ، نتيجة لتطور الحياة وتغيرها من حال إلى حال ، أو تقدم التكنولوجيا وعطائها المستمر للإنسان المعاصر ، هذا العطاء يأتي بآثار عكسية إذا لم يتنبه هذا الإنسان في استخداماته اليومية لهذه الوسائل التكنولوجية .. ومن هذه التحديات التي أوردها المؤرخون ، واتفقوا عليها منذ بدأ التجديد إلى السنوات الأخيرة من العقد الثالث للقرن الخامس عشر للهجرة ما يلي :

- تمسك حكام المسلمين : ملوك ورؤساء وأمراء وقادة بالحكم الاستبدادي الذي لا يمكن أن ينجح أي إصلاح في ظله وفي وجوده ؛ ذلك لأن هذا الحكم يفصل

ويباعد بين الحاكم والمحكوم ، حين يجعل الحاكم ساعيا في غيه ، والمحكومين يتجرعون ويلوكون صور القهر والظلم والاستبداد ، ونتيجة لذلك ؛ لا يشعر ولا يحس الحاكم بمعاناة المحكومين ، ولا يرغب ولا يعترف بحقهم في الحياة ، أو حتى مجرد أن يعيشوا ، وليس أن يتقدموا ويتطوروا ؛ لأن ذلك لو حدث كما يعتقد الحاكم ، فإن نتيجته المحققة : التفكير في التخلص منه والقضاء عليه! ولهذا.. فإن أول تحديات ومعوقات التجديد ، تتجسد في الحكم الاستبدادي الذي لا يسمح بأي حرية أو تفكير .

- جمود الغالبية من علماء الدين ، ووقوفهم « محلك سر » ؛ إذ لم يفكر في الإصلاح سوى عدد قليل منهم ، وظل الباقي على جمودهم غير عابئين أو غير مهتمين بالتفكير في الإصلاح .. وطبيعي - والأمر كذلك - أن يبرز من بين هؤلاء العلماء الجامدين وغير المهتمين بالإصلاح مجددون . على اعتبار أن التجديد يقوم أساسا على التفكير والرغبة في الإصلاح ، وذلك بإيجاد الحلول التي تواكب ما يطرأ من مشكلات .

- وإذا كان هناك عدد من أهل الجمود ، فإن هناك أيضا عددا كبيرا من الحكام الذين لا يؤيدون الحركات الإصلاحية في أوطانهم ؛ حيث يتوجسون الخيفة منها ، ويسيئون الظن بها ، ويعتبرونها معارضة لهم ، بل ودعوة إلى التمرد والثورة عليهم، ولهذا .. فقد أصبح من المألوف عند بعض الحكام عرقلة مسيرة التجديد، والوقوف ضدها : قديما وحديثا ، وهو ما سوف نلمحه في الفصول المتتالية من هذه الموسوعة ، حيث نرى عددا من المجددين قد واجهوا العديد من المتاعب ، ومنهم الذي عانى من عذاب السجون أو القتل ، وكانت جريمة كل هؤلاء هي التفكير ، أقول : مجرد التفكير وكأنهم يتصورون أن هذا العقل الذي خص الله سبحانه وتعالى به الإنسان دون غيره من مخلوقاته ليس له عمل ، أو أن استخدامه يتلخص في عبارة: يبقى الحال على ما هو عليه ، إذا طلب الأمر حلا أو إصلاحا .

- تقسيم الأمة الإسلامية إلى شيع وأحزاب ، لعل أبرزها الشيعة والسنة ، كما تفعل الولايات المتحدة في السنوات الأولى من القرن الحادي والعشرين الميلادي في العراق ، وبالتحديد منذ عام 2003 حتى كتابة هذه الصفحات عام 2008 ، وتغذية هذا التقسيم من أعداء الإسلام ، والمغالاة في ذلك مما ترك كبير الأثر على التفكير في خير الأمة الإسلامية كلها وليس في واحدة منها ، متناسين أن عظمة الإسلام تتمثل في كونه أمة واحدة لا تتنازعها المآرب والأغراض المتطرفة .

- معاداة أوروبا عامة ، والولايات المتحدة الأمريكية خاصة للتجديد الذي يتم على أيدي أصحابه من المسلمين ، أما إذا كان هذا التجديد من صنعهم ؛ فهو الذي يفضلونه ؛ لأنه يتماشى مع مصالحهم . أقول : أوروبا وأمريكا تعادي كل ما يحدث من حركة تجديد ، متبعة في ذلك صورا وأشكالا استخدمتها في القرون القليلة الماضية مثل : حركة الاستشراق التي تعمل تحت غطاء الاهتمام بالثقافة العربية والإسلامية ، وهي في حقيقة أمرها تأخذ ما يفيدها من هذه الثقافة . والأهم التعرف على مكونات تفكير أبناء هذه الثقافة ، حتى يسهل السيطرة عليهم ، والاستيلاء على مواردهم ، وهو ما يعرف بالاستعمار .. حتى إنه أصبح مألوفا أن يكون الاستشراق والاستعمار وجهين لعملة واحدة .. وكما سنرى في الفصول المتتالية كم عانى المجددون من معاداة هذه الأمم والشعوب الأوروبية والأمريكية أمرا انتهى إلى اعتبار المسلمين - بما فيهم العلماء والأدباء والسياسيون وغيرهم - إرهابيين ... وهو تفكير شاذ وشرير ، تولت كبره الولايات المتحدة الأمريكية في الفترة التي تولى فيها جورج بوش الابن الإدارة الأمريكية .. ومعه بالطبع حلفاؤه من حكام الدول الأوروبية . ومن عجيب الأمور : أن بوش نفسه يطالب بالتجديد بجهل فاضح ، على اعتبار أن هذا التجديد تم منذ مئات السنين كما رأينا .

- ظهور طائفة من مدعى العلم والفتوى في وسائل الاتصال بالجماهير ، وعلى الأخص التليفزيون ، خاصة في قنواته الفضائية بشكل لافت ، إلى درجة أن أمر الفتاوى وصل إلى أن يتولاها غير المتخصصين من رجال الدين والعقيدة ، مثل الذي يفتي في الدين بغير علم أو تخصص ، أو تلك التي يتولاها الفنانون والفنانات بعد اعتزالهم للفن ، وكأننا نأخذ تعاليم ديننا من العوالم لا من العلماء كما عبر عن ذلك أحد علماء الأزهر .. هذا بالطبع إلى جانب هذا الكم من المتعالمين الذين يسعون من وراء ذلك إلى الشهرة والمال ، وليس العمل للصالح العام ، وتواجد هذه الأنماط من مدعي العلم من شأنه أن يغطي على تواجد أهل العلم والفضل ، على مثال القاعدة الاقتصادية التي تقول : بأن العملة الرديئة تطرد العملة الجديدة من الأسواق .

وقد تحدث في ذلك مفارقات عجيبة وغريبة : كأن يتصدى بالحديث الصباحي عن الإسلام في إحدى الإذاعات العربية مسيحي مشهور بحواراته المستفزة ، وأن يوهم المستمعين بأنه عليم بهذا الدين إلى درجة الإفتاء فيه ، ويظل على هذا النحو حتى ينكشف أمره ؟!!

- يضاف إلى هذا النوع الجديد من مدعي العلم والفتوى في الأجهزة الإعلامية وجود هؤلاء الصبية من أتباع الجماعات الإسلامية الذين وقفوا بالإسلام عند بعض النصوص التي لا يقرها كتاب أو سنة ، بل كانت من وضع أمرائهم .. هذه الجماعات كان عليها أكبر الوزر فيما يتهمنا إياه الغرب من اتهامنا بالإرهاب كمسلمين ، إلى جانب ما أصابنا من تخلف وجمود وسوء فهم لحقيقة الإسلام ، وما ألم بنا من زعزعة لأركان مجتمعاتنا من أمن وأمان ، بشكل مباشر أو غير مباشر .

وعلى الرغم من وجود هذه التحديات والعوائق ، فمن المؤكد أن حركة التجديد في الإسلام كما سنرى في الفصول المتتالية كانت تمثل سمة بارزة تميز بها هذا

الدين دون غيره من الديانات السماوية الأخرى ؛ حيث أوجدت حركة فكرية مستمرة للتأكيد على أن الإسلام يواكب حركة الحياة الدائمة التغير في كل زمان ومكان ، ويعمل دائما على وضع الحلول المناسبة لكل ما يواجه المسلمين من تحديات ومشكلات ، وهو ما تهتم بإبرازه فصول هذا الكتاب ، حين تكشف عن جوانب التجديد من خلال رجاله على مدى خمسة عشر قرنا من الزمان في الأمم والشعوب التي تعيش تحت لواء الإسلام ، متتبعين هؤلاء الرجال المجددين في كل جوانب الحياة: دينية كانت أو علمية أو اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية أو ثقافية ، أو غيرها من جوانب نشط فيها وتعامل معها المسلم في مجتمعه الإسلامي ، وكانت من قبل غير موجودة في الحياة أثناء نزول الوحي على النبي ﷺ أو ما بعده من عصور إسلامية .. ويستوقفنا من هؤلاء المجددين نماذج لها أرصدة من إنجازات التجديد في الفكر الإسلامي. يتقدمهم - بالطبع - الخلفاء الراشدون الأربعة رضوان الله عليهم، حين واجهوا مشكلات جديدة ؛ نتيجة لاتساع الدولة الإسلامية وتوقف الوحي بعد وفاة النبي ﷺ ، يضاف إلى هؤلاء الخلفاء الراشدين الأربعة : عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه الذي يعتبر خامس الخلفاء ؛ لعدله وزهده ورخاء عصره، وكذلك الخليفة المأمون الذي ازدهرت في عهده العلوم والفنون والثقافات ، وبدأ عصر الترجمة لأمهات الكتب الأجنبية إلى العربية ، خاصة اليونانية ، حتى قيل : إن العرب المسلمين حافظوا على التراث اليوناني والروماني . وتفسير ذلك : أن العرب حين ترجموا الآثار اليونانية ، فقد حفظوها من الضياع ليأتي بعد ذلك الأوروبيون ، ويترجموها عن العربية إلى لغاتهم بفضل العرب .

ويحظى هذا الجزء الأول بحشد من الأئمة الكبار يتقدمهم - بالطبع - الإمام مالك والإمام أبو حنيفة والإمام الشافعي والإمام أحمد بن حنبل وهم: أئمة المذاهب الأربعة ، ومعهم الإمام الليث بن سعد ، وإمام أهل الشام الأوزاعي وأئمة ثلاثة لهم

في تاريخنا وعقيدتنا الإسلامية تواجد وبروز ، وهم : الإمام البخاري ، والإمام مسلم ، والإمام الطبري وغيرهم .

كما يحظى هذا الجزء من موسوعة أعلام المجددين في الإسلام بتواجد أكبر عدد من فلاسفة الإسلام ومفكريه ، ممن تجاوز أثرهم العالم العربي والعالم الإسلامي إلى غيره من الأقطار الأجنبية ، ويتقدمهم فيلسوف العرب الكندي ، والمعلم الثاني: الفارابي بعد المعلم الأول أرسطو والشيخ الرئيس ابن سينا ، وحجة الإسلام أبو حامد الغزالي وابن حزم ، وعدد آخر من العلماء الذين تأثرت بعلمهم أوروبا ، وفي مقدمتهم : الرياضي الخوارزمي والطبيب الرازي ، والفلكي البيروني ، كما يوجد أيضا مبدعون مبرزون في الأدب واللغة يتقدمهم في اللغة عبد الرحمن بن هرمز ، وما له من أثر في قواعد اللغة العربية ، والشاعر الخالد أبو العلاء المعري وغيرهما .

كذلك تشرف الصفحات التالية بتسجيل إنجازات عدد من نساء آل البيت رضوان الله عليهن ممن كن على قدم المساواة في تجديد الفكر الإسلامي ، وهن : سيدة الرأي والشورى رئيسة الديوان : زينب بنت الإمام علي رضي الله عنهما ، والمرجع في رواية الحديث النبوي وتصحيحه : فاطمة النبوية بنت الإمام الحسين ، وصاحبة أول ندوة فكرية في الإسلام : السيدة سكينة بنت الإمام الحسين ، ونفيسة العلم والمعرفة : نفيسة بنت الإمام حسن الأنور رضوان الله عليهن جميعا .

ولا ينتهي هذا الجزء الأول من موسوعة أعلام المجددين في الإسلام دون أن تطالعنا تيارات إسلامية ، كان لها كبير الأثر في الفكر الإسلامي ، ومنها : الأشعرية نسبة إلى أبي الحسن الأشعري ، والماتريدية نسبة إلى إمامهم الماتريدي ، وإخوان الصفا والماوردي وما لهذين التيارين الأخيرين من مريدين وأتباع ، انتشروا في طول العالم الإسلامي وعرضه .

وعلى الجملة .. أريد أن أقول للقارئ الكريم : إنني بهذا الجهد الذي أسعفه عون من الله وفضله ، لا أزعم أنني قد أوفيت على الغاية ، أو شارفت الهدف في هذه الصفحات التي بين يديك .. والسبب هو : أنني لم أتعود إلا أن أكون واحدا من القراء، آخذا مكاني بينهم ؛ لنتدارس الفكرة تلو الفكرة لمن سبق من المؤلفين المخلصين في صبر وأناة . خاصة وأن جهود هؤلاء المجددين وإنجازاتهم تقوم أساسا على الفكر في أفضل وأعظم مستواه.. مكتفيا من القول ومن الحجة بما يمكن أن يكون نقطة الانطلاق لتفكير جاد ومفيد ، يرد على أباطيل الذين يدعون بأنهم يرغبون في تجديد الفكر الديني من ناحية ، وتقديم الدين الإسلامي الحقيقي من خلال أبنائه من أعلام المجددين من ناحية أخرى .. آملا أن يصل بنا هذا الفكر النبيل إلى أسمى الغايات وأنبل الأهداف .

والله ولي التوفيق .

سامح كريم

القاهرة الجديدة – أكتوبر ٢٠٠٨